الفصل الثاني

النتائج الأخروية لتضحيات العلماء

رسمت الشريعة الإسلامية خطاً واضحاً للتفاضل بين الناس ، بحيث :

لا النسب ، ولا المال ، ولا القوة والجاه ، ولا المظهر والشارات ، ليست هذه أسس المفاضلة ، إنما التفاضل بشيء واحد هو العلم ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر : ٩] .

واعتبرت الشريعة مسألة العلم لها أهمية كبيرة ، حتىٰ أكثر من نوافل العبادة ، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ :

« تعلّموا العلم ، فإنَّ تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قُربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة ، والأنيس في الوحشة ، والصاحب في الوحدة ، والمحدّث في الخلوة ، والدليل علىٰ السرّاء والضراء ، والسلاح علىٰ الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، والقرب عند الغرباء ، ويرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الجنة قادة » .

والسبب في ذلك أن العلم يؤدي إلىٰ التفكر في مخلوقات الله ، وهذه نتيجتها الخشية لله تعالىٰ ، كما قال الإمام علي رضي الله عنه :

. . انظر إلىٰ النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تُنالُ

بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفِكر ، كيف دبّت علىٰ أرضها ، وصُبَّت علىٰ رزقها ، تنقل الحبة إلىٰ جحرها ، وتُعدُّها في مستقرها ، تجمع في حرّها لبردها ، وفي وردها لصدرها ، مكفولة برزقها ، مرزوقة بوفقها ، لا يغفلها المنّان ، ولا يحرمها الدّيان ، ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس ، ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسُفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً ، فتعالىٰ الذي أقامها علىٰ قوائمها ، وبناها علىٰ دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يُعنه علىٰ خلقها قادر . .[1] .

ورضي الله عن أبي ذر عندما قال : لبابٌ يتعلمه الرجل أحبّ إليّ من ألف ركعة تطوعاً ، ولقد سمعت النبي ﷺ يقول :

« إذا جاء الموت لطالب العلم وهو علىٰ هذه الحالة مات وهو شهيد »[2] .

ورضي الله عن عثمان بن عفان عندما قال : سمعت النبي ﷺ يقول :

« يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

أجل!

أي مكانة سامية في الآخرة كتلك المكانة التي يحصّلها العلماء ؟

إنَّها الشفاعة بعد شفاعة النبيين عليهم الصلاة والسلام ، والشفاعة درجة عالية جداً ، لا ينالها إلا المصطفون الأخيار .

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع يراجع كتاب : تفكُّر ساعة (حقيقة التفكر في القرآن والسنة) ، للمؤلف .

(٢) الترغيب والترهيب للمنذري : ١/ ٦١ .

حتىٰ إنَّ درجة العلماء أفضل من درجة الشهداء! كيف ذلك ؟ والشهداء هم الذين ضحوا بأرواحهم ، وانطلقوا نحو الموت بعد أن باعوا كل شيء في الدنيا!

لعلّ سرّ المسألة ـ والله العالم ـ أن الشهيد يبيع نفسه مرة واحدة ، أما العالم فإنَّه يبيعها كثيراً وكثيراً ، من حيث إنَّه يضحي بماله لشراء كتبه ونحو ذلك ، ويضحي بوقته من أجل التعلم والتعليم ، ويضحي بمتع الدنيا وزخرفها ، ويضحي حتىٰ بعلاقاته الاجتماعية ، لأن العلم إن لم تعطه كلك لم يعطك بعضه . كذلك ، فالشهيد قد لا ينتفع منه إلا القليل ، لأنه لا يملك إلا نفساً واحدة ، يضحي بها ، أما العالم فإن الكثيرين سيستفيدون من علومه ، في حال حياته وبعد مماته ، وهذا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « للأنبياء علىٰ العلماء فضل درجتين ، وللعلماء علىٰ الشهداء فضل درجة » .

ومثله ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء » .

وعلّق أبو الدرداء علىٰ هذا الحديث النبوي الشريف بقوله : من رأىٰ الغدوّ والرواح إلىٰ العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه .

ورحم الله العلامة ابن عبد البر (ت : ٤٦٣هـ) عنما قال : أنشدني بعض شيوخي :

أهلاً وسهلاً بالذين أحبّهم ... وأودّهم في الله ذي الآلاء
أهلاً بقوم صالحين ذوي تقىٰ ... غرّ الوجوه وزين كل ملاء
يسعون في طلب الحديث بعفة ... وتوقر وسكينة وحياء
لهم المهابة والجلالة والنهىٰ ... وفضائل جلّت عن الإحصاء

ومـداد مـا تجـري بـه أقـلامهـم أزكـىٰ وأفضـل مـن دم الشهـداء
يـا طـالبـي علـم النبـي محمـدٍ مـا أنتـم وسـواكـم بسـواء[1]

ثم ألا يكفي العلماء من قدر ومكانة أنهم ورثة الأنبياء ؟!

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : سمعت النبي ﷺ يقول :

« من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلىٰ الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وزاد في رواية أخرىٰ :

« . . وموت العالم مصيبة لا تجبر ، وثلمة لا تسد ، ونجم طمس ، وموت قبيلة أيسر من موت عالم » .

والمسألة ليست بالكم ، إنما هي بالكيف!!

أي أن الله لا يحاسب الناس علىٰ كمية العلوم التي حصلوها ، إنما المسألة أن تعقد العزم والنية لله ، وأن تنطلق في هذا السبيل ، فإن كتب الله لك ذلك حصّلت الأجر كله ، وإلاّ إن مُنعت لسبب أو آخر ، فإن الله يكتب لك الأجر أيضاً ، فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من طلب علماً فأدركه ، كتب الله عز وجل له كفلين من الأجر ، ومن طلب علماً فلم يدركه كان له كفلٌ من الأجر » .

---

(١) للتوسع يراجع كتاب : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر : ١/ ٣٦ـ٥٩ .

والرسول ﷺ وهو الهادي إلىٰ صراط الله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى : ٥٢-٥٣] .

حدد المنهج الذي يسير عليه الناس ـ وهو منهج العلم ـ ليصلوا إلىٰ جنة الله ورضوانه ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله! أي الأعمال أفضل ؟

قال : « العلم بالله عز وجل » .

قال : يا رسول الله! أي الأعمال أفضل ؟

قال : « العلم بالله » .

قال يا رسول الله : أسألك عن العمل وتخبرني عن العلم ؟

فقال رسول الله : « إن قليل العمل ينفع مع العلم ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل » .

حتى بعد موت الإنسان ، فإن الله يكتب له حسنات بسبب انتفاع الناس بعلمه وعملهم به ، فعن أبي حنيفة عن حماد عن إبراهيم النخعي قال :

بلغني أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في الكفة الأخرى ، فتشيل حسناته ، فإذا أيس وظن أنها النار ، جاء شيء مثل السحاب حتىٰ يقع في حسناته فتشيل سيئاته ، قال : فيقال له : أتعرف هذا من عملك ؟

فيقول : لا ، فيقال : هذا ما علّمت الناس من الخير ، فعمل به من بعدك!!

وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« يبعث الله العباد يوم القيامة ، ثم يميز العلماء ، ثم يقول : يا معشر العلماء! إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم » .

ورضي الله عن علي بن أبي طالب عندما أنشد شعراً ، جاء فيه :

الناس في جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفسٍ وأرواح مشاكلة ... وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهمُ من أصلهم حسبٌ ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلاّء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... وللرجال علىٰ الأفعال أسماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

ورحم الله سابق البربري عندما قال :

موت التقي حياة لا انقطاع لها ... قد مات قوم وهم في الناس أحياء

أما في القبر ، حيث لا يدخل مع الإنسان صاحب ولا محام للدفاع عنه ، ولا مال للرشوة وما إلى هنالك ، ذلك لأن جمارك القبر التي أوقفها الله علىٰ بوابات القبور ترفع لافتة مكتوباً عليها : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

هناك لا ينفع إلا العلم ، مصداق ذلك ما رواه كعب من أن الله أوحىٰ إلىٰ نبيه موسىٰ عليه السلام : « تعلّم الخير وعلّمه الناس ، فإني منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتىٰ لا يستوحشوا لمكانهم » .

ورحم الله القائل :

رأيت العلم صاحبه شريف ... وإن ولدتْه آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن ... يعظِّم قدره القوم الكرام
ويتّبعونه في كل أمر ... كراعي الضأن تتبعه السوام
ويُحمل قوله في كل أفق ... ومن يك عالماً فهو الإمام
فلولا العلم ما سعدتْ نفوس ... ولا عُرف الحلال ولا الحرام

فبالعلم النجاةُ من المخازي وبالجهل المذلة والرَّغام
هو الهادي الدليل إلىٰ المعالي ومصباح يضيء به الظلام
كذاك عن الرسول أتىٰ عليه من الله التحية والسلام

إذاً :

بعد انتقال الإنسان إلى الدار الآخرة ، ينقطع العمل ، ولا ينفعه من كل ما خلّف إلا ثلاثة أمور حددها النبي ﷺ بقوله :

« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

فإذا ورَّث مكتبة ، أو كتب كتاباً ، أو علّم طلاباً في حياته ، أو بنىٰ مركزاً ثقافياً أو مدرسة وما إلى هنالك ، ثم مات ، فإنَّ الله تعالىٰ يكتب أجر ذلك في صحائفه ، ولعلّ هذا معنى قوله تعالىٰ : ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس : ١٢] .

فليست آثار الإنسان التي يستفيد منها بعد موته : سيارات فاخرة ، أو بيوت ضخمة فارهة ، أو أرصدة في بنوك عربية أو أجنبية ، فهذا مصيره للورثة ، وقد يُصرف ثمنه في ما لا يرضي الله عز وجل!!

إنما الآثار التي تُكتب حسناتها له بعد موته هي الأمور التي تتعلق بنشر العلم ، وهذا ما نراه في واقعنا المعاش .

مدارس بُنيت منذ العهد الأموي والعباسي ، حتى الآن يستفيد منها طلبة العلم ، فيتعلمون فيها شتى أنواع العلوم ، ويتخرّج في كل عام علماء في شتى العلوم ، لينشروا النور والعلم في أصقاع المعمورة ، وفي بلاد الشام ما زالت بعض هذه المدارس حتىٰ يومنا هذا .

تُرىٰ كم استفاد منها أناس عبر هذه القرون ؟ ثم كم نقلوا من خلالها العلوم إلىٰ أنحاء المعمورة ؟

ترىٰ فيها العربي إلىٰ جانب المسلم الباكستاني والتركي والأفغاني والصيني والروسي و. . . ، عندئذٍ تدرك ماذا يعني قوله تعالىٰ : ﴿وآثارهم﴾ .

بينما مات الأغنياء كما يموت الفقراء ، فماذا استفادوا من الأموال التي كانوا يملكونها ؟ تقاسمها الورثة ، وأدرج الأغنياء في القبور ، وكأن شيئاً لم يكن .

من هنا نفهم سرّ تركيز الشريعة علىٰ تعلّم العلم وتعليمه : حيث درجة الشفاعة للعلماء ، وحيث وراثة العلماء للأنبياء ، وحيث إن درجتهم أعلىٰ من الشهداء ، وحيث الاستمرارية في الأجر لقاء ما استفاده الناس من علومهم .

لكن المشكلة في هذه الأيام أن الموازين لدى كثير من الناس قد تغيّرت ، فأصبحت المسألة تنحصر بما يملك من مال ومتاع . وكأن هؤلاء نسوا أن المسألة ليست في أي شيء من حطام الدنيا ، لأن الدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة!!

والمسألة ليست إلا بما تملك من علوم ، وإلا كم من الناس أناس يملكون الأموال هنا وهناك ، لكن لا يملكون أي نوع من العلوم ، فترى حياتهم فيها الشقاء والتعاسة ، حتىٰ أموالهم تراها أصبحت وبالاً عليهم .

لكن الميزان الصحيح ، هو ما عبّر عنه الحافظ ابن السّنيّ (ت : ٣٦٤هـ) رحمه الله بقوله :

رضيتُ من الدنيا بقُوتٍ يقيمني ... فلا أبتغي من بعده أبداً فضلا
ولستُ أرومُ القوت إلا لأنه ... يُعين علىٰ علمٍ أرُدُّ به جهلا
فما هذه الدنيا بطيب نعيمها ... لأيسر ما في العلم من نُكتة عِدْلا

هذا هو الميزان الحق ، حيث سطّر التاريخ أروع الأمثلة عن أناسٍ كانوا فقراء وعبيد و . . . ، ثم سلكوا طريق العلم ، فخلّدهم التاريخ إلىٰ ملايين السنين! بينما أناس كانوا يرفلون بالذهب والحرير ، أولاد لخلفاء وأمراء وملوك ، طواهم عالم النسيان حتىٰ كأنهم ما كانوا يوماً ما!!

ذلكم (عطاء بن أبي رباح) رحمه الله تعالىٰ (ت : ١١٥هـ) ، جاء في ترجمة حياته[١] :

كان من سادات التابعين فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً .

وقال عنه علماء التاريخ والسير : هو الإمام ، شيخ الإسلام ، القدوة ، العَلَم ، مفتي الحرم ، أبو محمد القرشي مولاهم ، المكيّ ، وكان أسود مفلفلاً ـ أي شديد جعودة الشعر ـ فصيحاً ، كثير العلم ، قال عنه الإمام أبو حنيفة رحمه الله : ما رأيت أحداً أفضل من عطاء .

من الذي رفع عطاء ؟ ماله! جاهه! نسبه! قرابته من الخليفة الفلاني أو الأمير الفلاني! أبداً ، إنما الذي رفع قدره ومقامه هو العلم ، والعلم وحده ، وما زال ذكره بين العلماء وفي الكتب ، وحتىٰ وراثة الأرض ، وفي هذا دليل علىٰ أن العلم هو الذي يخلّد ذكر الإنسان بعد الموت[٢] . لأن الموت لا ينحصر بموت الجسد ، إنما هناك الكثير من الناس تعيش أجسادهم في الدنيا ، لكنهم في عداد الأموات حقاً ، فهم ميّتون ـ روحاً وعقلاً ـ وهذا ما عبّر عنه سعد الله التفتازاني (ت : ٧٩٣هـ) رحمه الله بقوله :

---

(١) للتوسع يراجع : سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي : ٥/ ٧٩ـ٨٧ .

(٢) كما قال الشاعر :

يموتُ قومٌ فيحيي العلمُ ذِكرَهُم والجهل يلحق أمواتاً بأمواتِ!!

إذا خاض في بحر التفكر خاطري على دُرّةٍ من معضلات المطالب
حَفَرْت ملوك الأرض في نَيْل ما حَوَوْا ونِلْت المنىٰ بالكتب لا بالكتائب

فرحم الله علماء هذه الأمة ، وأجزل مثوبتهم ، وحشرنا الله وإياهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وجعلنا خير خلف لخير سلف ، إنه على ما يشاء قدير .

* * *